الأسبوع الثالث: ممالك السودان الشرقي

3- مملكة الفونج

1. مملكة الفونج(سنار) : 1504 م . 1820 م

شكل تأسيس مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء في مطلع القرن السادس عشر ميلادي منعطفا تاريخيا مهما في تاريخ السودان الحديث وذلك على حساب مملكة علوة المسيحية في منطقة وادي النيل الأزرق.

لقد جاء تأسيسها تتويجا لحلف بين عرب القواسمة المعروفين بالعدلاب والذين كان زعيمهم عبد الله جماع والقبائل الجنوبية بزعامة عمارة دنقس وهو من قبيلة الشلك النيلية الجنوبية حيث تمخض عن هذا الحلف تنصيب عمارة دنقس سلطانا عليها وعبد الله جماع نائب له وممثله في المناطق الشمالية .

وقد أطلق عليها المؤرخون اسم مملكة سنار أو المملكة الزرقاء والتي تمتد حدودها من الشلال حتى حدود إثيوبيا جنوبا ومن الصحراء الشرقية حتى ساحل البحر الأحمر إلى كردفان غربا باستثناء مدينة سواكن التي كانت تحت نفوذ الأتراك بعد إخضاعهم لمصر عام 1517م.

تتكون من عدة سلطنات ومشيخات خضع بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر وهي : خشم البحر، فازوغلي، الحمدة، بن عامر، الحلتفه، الشنابلة، المناصير، الجعليين، الميرفاب، الجموعية، الرباطاب، الشابقية دنقلا العجوز، الخندق، ارغو، الانقسنا، الوطاويط، البرتا البرون، الفلاقة، كنانة، الدغيم، العركيين، الجمجم ورفاعة.

اختلفت الروايات حول أصولهم فمنهم من ذهب الى القول بأنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربه في القرن الخامس عشر ميلادي ومنهم من أرجعهم إلى الشيلوك القاطنين في جزر النيل الأبيض، بينما أرجع البعض أصولهم إلى منطقة أعالي النيل الأزرق وإقليم فازوغلي، لكن الرحالة جيمس بروس ذكر بأنهم ينحدرون من قبيلة الشلك وهذا بعد زيارته لمنطقة سنار عام 1772 م وبأنهم قدموا من النيل الأبيض على متن زوارق صغيرة .كما يرجع البعض أصولهم إلى البرنو في السودان الأوسط ، في حين ترجع بعض الروايات أصولهم إلى

بعض القبائل العربية التي استطاعت أن تتحالف مع بعضها البعض لتقضي على الأسرة المالكة في علوة، غير أن الفونج أدعوا بأن نسبهم يعود إلى الأمويين الذين فروا من بلاد الشام عام 132هـ بعد سقوطها في يد العباسين وتوغلوا حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق وعموما فان معظم الروايات ترجح أصلهم العربي ،إن أهم ما ميز هذه القبائل هو غلبة العنصر العربي على مكوناتها وان معظمهم يدينون بالإسلام كما أنهم يتحدثون اللغة العربية التي كانت لغة الدولة الرسمية .

اتسم نظام الحكم في دولة الفونج بالتالي:

–السلطان :يتم تعيينه من أبناء العائلة الحاكمة سواء أحد أبنائه، إخوته أو أعمامه وذلك عن طريق مجلس يتكون من كبار رجال الدولة بعدها تتم مبايعته ، كان السلطان في سنار يتلثم بلحاف من حرير ملون يرتدي معطفا موشى بالذهب يضع على رأسه حزاما من قماش وعمامة بيضاء.

– معاونوه: يأتي الوزير بعد السلطان يلقب بسيد القوم يشغل منصب قائد للجيش إضافة إلى رجال الدين وشيوخ الطرق الصوفية .

–المشيخات المحلية: تمتعت باستقلالية ذاتية ولم يكن السلطان يتدخل في تصريف شؤونها فقد كانت سلطته عليها رمزية فهي تؤدي الضرائب والزكاة، كما كانت تزوده بالرقيق وبعائدات الرسوم التي تعد موارد هامة لخزينة السلطنة ان القرية بقت تحت سلطة القبيلة الواحدة او بعض من فروعها موالية لمشيخات القبائل كما كانت أراضيها ملكا مشاعا بين أفرادها الذين يشتغلون بالزراعة والرعي.

إن أهم المشيخات التي كانت تتبع دولة الفونج هي:

. مشيخة العبدلاب: من حجر العسل إلى سوبا (بين اريحي والشلال الثالث).

. مشيخة خشم البحر : على النيل الأزرق الشرقي بين الرصيرص حتى فازوغلي .

. مشيخة بني عامر: في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور(بركة) .

. مشيخة الحلالقة: في جبل كسلا على القاش.

. مشيخة السنابلة: على النيل الأزرق شمال سنار .

. مشيخة الجعليين: بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى.

. مشيخة الميرفاب: في شمال مشيخة الجعليين ومركزها بربر .

. مشيخة الرباطاب: فيما وراء أبي حمد .

. مشيخة المناصير: من الشامخية إلى الجندل الرابع .

. مشيخة الشايقية: يقطنون دنقلا .

لقد تميزت علاقات مملكة الفونج مع إثيوبيا بالودية وحسن الجوار نلمس ذلك من خلال رسالة ملك إثيوبيا "تكلاهيمانوت الأول" (1706 م . 1708 م) للسلطان بادي الثالث الأحمر (1682م . 1715م) والتي تضمنت أواصر الصداقة وحسن الجوار والتآخي بين الدولتين.

يذكر بان هذه العلاقات تراوحت بين الودية تارة والندية تارة أخرى تبعا لمتغيرات الساحة السياسية في كلا البلدين وللظروف الأمنية والاقتصادية لكليهما، كما نجحت في إقامة علاقات ودية مع العثمانيين في البحر الأحمر وشجعت التجارة مع المصريين عبر طريق القوافل التجارية التي كانت تدر عليها أرباحا طائلة تذهب إلى خزينة السلطان، حيث أقيم فيها مع أوائل القرن 18م حوالي خمسة عشر مركزا تجاريا في كل من بربر، الدامر، شندى، وادي مدنى، وسنار هذه الأخيرة كان يقيم بها حوالي 30الف نسمة

إن تحول التجارة الدولية عن مصر والبحر الأحمر نحو طريق رأس الرجاء الصالح أدى إلى تراجع مواردها المالية فبدأت تضعف مع لجوء القبائل الى السطو و السلب والنهب مع عجزها عن ردعها الأمر الذي أدى إلى ضعفها وتفككها، ومع أواخر أيامها سيطر عليها وزراء الفونج المعروفين باسم الهمج أو الهمق الذين وقفوا عاجزين عن وضع حد للفوضى وتدهور السلطنة، ومع أوائل القرن التاسع عشر انشقت عنها الكثير من القبائل والمدن مثل قبيلة الشايقية ومدن شندى والدامر.

وبذلك زالت دولتهم بعد أن تنازل آخر سلاطينهم وهو السلطان بادي عن ملكه يوم دخول الحملة المصرية بقيادة إسماعيل باشا بن محمد علي عام 1821 م وذلك بعد وصوله إلى عاصمتها وتوقيع بادى على وثيقة الاعتراف بتبعيته للسلطان العثماني وتسليمه إدارة البلاد إلى والي مصر.

لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوطها نذكر منها ما يلي:

. عدم اهتمام السلاطين باحتواء العناصر المختلفة والمشكلة للمملكة، لهذا كان الولاء للمشيخات ورؤساء القبائل.

. إثقال كاهل القبائل والعشائر بالنظام الضرائبي مما فاقم من تأزم أوضاعها اقتصاديا، مع تحول تجارة الرقيق نحو طريق رأس الرجاء الصالح، واستحواذ الأوروبيين على سواحل إفريقيا الغربية وإنشائهم لمراكز تجارية هناك.

. تردي الأوضاع السياسية بسبب الفتن والاضطرابات خاصة في عهد السلطان بادى أبو شلوح وذلك بعد أن انقلب عليه الجيش.

. ظهور سلطات دينية متعددة، حيث زادت من تعقيد أمور المملكة فشاع التعصب بين الفقهاء والذي انعكس سلبا على الاستقرار الاجتماعي.

. حروب الاستنزاف بين السلطنة وإثيوبيا خاصة عام 1604 م، أدت إلى إضعافها، مما دفع بالقبائل إلى الامتناع عن دفع مستحقاتها من الضرائب.

ما يمكن قوله بأن دولة الفونج لعبت دورا حضاريا معتبرا في السودان وذلك بنشرها للغة العربية ومظاهر الحضارة الإسلامية، فقد استطاعت إنهاء وجود مملكة علوة المسيحية، وعمرت لفترة ثلاثة قرون، غير أن التعصب القبلي وابتعاد ملوكها وسلاطينها عن العالم الخارجي مكن الأتراك من إحكام سيطرتهم عليها وإخضاع عاصمتها سنار سنة 1820م.